الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفزى

إن الأقلام لم يجف مدادها . ولم تنفد تصورات الكاتبين عن المثل والقيم ، ولما يزل أصحاب المعتقدات يسطرون ما ينفعلون به نجاة اعتقادهم . ويحاولون بطريقة أوبأخرى إضفاء الألوان المغرية . ولكن الواقع شيء والأمانى والمثل شيء آخر ، وإن إرادة إشراب الواقع . هذه التيارات الاعتقادية يحتاج إلى قوة الواقعية فى نفس المذهب . ويحتاج أيضاً إلى استعداد نفس فى الجماعة يهبها الاندفاع إلى هذا المعتقد ولقدأصبحت ظروف العالم اليوم غير مبيحة للخيال الجميل أو القصور الحالم أن يقود القافلة . مهما بذل أصحابه اليوم من براعة واتقنوا من فنون .

وأن ما يمكن أن يساعد الدعاة على نشر معتقداتهم . وييسر لهم أمر إنجاح أهدافهم هو مدى ارتباط الدعوة أو المذهب بالواقع الذى يعيشه الناس وبالدفع إلى الأمام وقوة النتائج المرضية والمتجاوبة مع حاجة الفرد وأغراض الجماعة : ومن أجل ذلك نرى آثار دعاة الشيوعية مثلا وحركة جهادهم قد ائمرت على الطبيعة لأنه قد استكملت ظروف النجاح للمذهب والدعاة ، فهو مصدر الخبز ونزعة الصراع وإرادة التفوق فى مجال الحياة ، ومن أجل ذلك يا صديقى أرانى بحاجة إلى مصارحتك بأن الدين لم يعد من القوة الجاذبية إليه بحيث يهرع الناس إلى حظيرته . ولم يعد له مجال للقيادة فى حقل الصراع والتكتل البشرى والمذهبي المعاصر . ولم يعد له بالتالى دعاة بالانفعال والقوة والبيان والتأثير مثل ما يتحلى به دعاة الشيوعية. ومن أنه لم يعد قوياً بحيث يتفاول الجوانب الإنسانية المتطورة فى الفرد والجماعة . ولم يكن من واقع التجربة البشرية . ولامن نتائج الصراع على طول الخط التاريخى . لهذا يا صديقى ولغيره أرانى بعد أن طال بى الأنصات إلى حديثك بحاجة إلى مصارحتك . وإذا راعيت موقف المسلمين أصحاب القرآن ودعاته . وما هم فيه من نزوع نحو التخلص من شرور الاستعمار الأثيم الذى دهمهم . وألوان الاستبداد الداخلى . ثم الاندفاع نحو

خط يحفظ عليهم ذاتيتهم . هو أقرب ما يكون إلى فلسفة التحفظ والاستغلال خوفا من السقوط فى براثن الشيوعية أو الظلم الاجتماعى بل يميل الاتجاه الإسلامى المعاصر إلى موقف التفكير فيما يمكن أن يحقق العدل . ولا يؤاب القوى الغاشمة . على ضوء ذلك يا صديقى أرانى غير متأثر بالعاطفة أو منحيز إلى فئة .

قلت نعم . يا صديقى . لا ريب أن نجاح عقيدة أو مذهب ما يتوقف إلى حد كبير على ما ينطوى عليه من توفير الاحتياجات الأصلية فى قيام الإنسان بمزاولة الوجود ومما لا ريب فيه أيضاً . أن أصالة المذهب من حيث إنه يستجيب لمطالب الفرد والجماعة فى الحقل الكونى العام أمر حتمى وضرورة لازمة يضمن له البقاء والخلود .

وإلا فكثير من المذاهب والمعتقدات قد ظهرت بل وارتفعت إلى الصعيد السياسى والاجتماعى ، ثم انقرضت وبادت قبل أن تبيد الجماعة . والتاريخ يحدثنا عن كثير من الملل والنحل والمذاهب والاتجاهات التى لم تقو على مغالبة الأعاصير ولم تثبت أمام سنة التطور والتناحر فى مجال البقاء والصلاحية . وهنا لا بد أن نلفت الأنظار إلى حقيقة هامة يتوقف عليها خلود المذهب وقوة انتشاره وإثراء أفكاره وبها يظهر صدق المعتقد وأصالته . ذلك أن الدين الذى يفسر الوجود ، ظاهره وباطنه تفسيراً لا يقف عند حدود زمنية ولا تهدمه اكتشافات علمية ، أو تفض من قيمة خلوده أساليب تطورية ، أو وثبات مدنية وأفكار تقدمية . وآثار حضارية . هذا الدين الذى هو مصباح يضىء جوانب الوجود . ويترك كشف الجزئيات وتفسيرها والانتفاع بها إلى قدرة الرأى ومدى قوة نظره وحدة بصيرته ، ومكتسباته التجريبيه والتقدمية .

إنما هو أضواء على الطريق . وعلامات بها يهتدى السائرون . فإذا تناول الكون فمثلا أشار إلى أنه عالم ملىء بالوجودات . وأنه مخلوق لغاية وبحكمة وإرادة وأن للانسان صلة به وجودا وبقاء . ثم يدعو إلى كشف خباياه والبحث عن أسراره وقواه . وإزاحة الأستار عن محتوياته و آلائه . فإذا كان القرآن الكريم ، كتاب الإسلام الخالد . يقول « قل أنظروا ماذا فى السماوات والأرض » فإنما يعنى بذلك والله أعلم . أن النظر هنا هو توجيه القوة الفاحصة . والنظرة العملية الباحثة . والإرادة الخيرة المتوثبة . لا نظر البصر ونزعة الاعتبار فقط هذا الأسلوب الدافع للقوى إنما يراد به توجيه العقل العملى والقوى الكاشفة فى الإنسان إلى أشياء السموات وأشياء الأرض : لأنه

خلقكم وخلق لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه » ومن ذلك ترى هذا التوجيه الدينى أضواء على الطريق وهى بذلك لا تتعارض أو تتضارب مع التقدم العلمى أو التطور الكشفى . بل الأمر بالعكس . كلما زادت المعارف والعلوم وارتقت الكشوف وكثرت الطرق العلمية . كلما كان ذلك مؤيداً ومناصراً لهذه الخطة العلمية التى سبقت الزمن بعشرات القرون . هذا جانب .

ومن جهة أخرى يسلط الأضواء الكاشفة والحاسمة على الوجود الإنسانى نفسه من حيث هو الكائن فى سلسلة الكائنات الحية على الأرض ولقد كرمنا بنى آدم . ويبرز أسباب تحميله أمانة الاستخلاف وتبعة العمران . فهو إذا تعلق بالتراب ولصق بالطين وكان همه البطن فقط وفلسفة الخبز لاغير فقد انحصرت قواه ولم يجاوز أخاه الحيوان البطنى الذى يعيش على النبات أو الأشياء البطنية . وهو ليس كذلك . بل هو الكائن الفريد الذى عمر الأرض وكتب التاريخ وأقام المدنيات وشيد الحضارات وسطر التجارب وفلسف المواقف فى نحل ومذاهب . وإذا هو حلق فى آفاق ما بعد الطعام وانصرف عن عمارة الأرض فقد جاوز رسالته وانصرف عن استكمال وجوده وتأدية دوره الكونى . وسواء كان هذا التحليق فى آفاق روحانية صرفه أو فلسفات عقلانية بحته . وها هو القرآن الكريم يقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » . وفيما آتاك الله . إشارة جميلة ولمحة رائعة إلى القوى الإنسانية التى تتم بها وحدة الإنسان من شهوة وعقل ، وروح وأن هذه القوى التى يتفاعل الإنسان الحى بسببها إنما هى قسمة بين باطن الإنسان وظاهره بين دنياه المليئة بالأشياء من حوله . وبين خفيه الذى يشعر به عند الخلوة والفكرة والصفاء . دنياه الروحية المشرقة بالنور والفيوضات . ومن عجب فى أمر الإسلام أنه يرى أن صلاح الظاهر مرتبط بصلاح الباطن واستقامة العقل . وأن سمو وجودنا ونفع تعقلنا مرهون بالتفاعل والاندفاع نحو الحياة بكل ما فيها من ظاهر وباطن ، فهو ليس رهبانية جوانيه . ولا نزعة انعزالية تخلصية . وليس مادية حيوانية ، بل هو يقيم الوجود الأمثل . والغاية المشرفة للفرد والجماعة والبشرية على أساس من حقيقة الوضع الكونى . ثم هو فى كل ذلك يربط ما فى دنيانا بأكبر ما فيها ، ثم يبين فى إحكام ودقة قوة الربط ومكانة الانسجام وغاية الوحدة الوجودية بين كل أشياء الحياة .

ومن حيث إن الأمر كذلك رأينا القرآن الكريم ، شريعة الله وطريق الحق . وسبيل الرشاد . يقيم التنظيم الفردى لقوى الإنسان والتنظيم الجماعى لأفراد المجتمع . والشكل التعاونى لجماعات البشرية على أسس من العدالة والتوازن . وهو من أجل ذلك قد تناول كل القوى ، والغرائز والاتجاهات . وأحاطها بسور من النور ليجمع نافرها ويرد ناشزها وعاديها . ويكبح جماح شاردها . ويقوى ويدفع صالحها وناضجها ، والأصل فى ذلك كما أشرنا فى مقال سابق . هو أن رسالة الإسلام تنظيم لقوى الفرد والجماعة الإنسانية على أساس من الدفع وإثبات الوجود . دون كيف أو مصادرة . ودون بتر أو مهاترة تنظيم يستمد فلسفته الغائية من الاحتياجات الإنسانية . من حيث التكوين الوجودى . ومن حيث التفسير الكونى . ومن حيث الموقف الالتزامى فى الحياة : لذلك رأينا كل ما من شأنه أن يزيد فى سرعة إنجاز هذه الغاية ، أو يدفع إلى ساحة النفع الشريف . ولا يتعارض مع أساليب التربية القويمة والطريقة الحكيمة : كل ما من شأنه نفع الإنسان إيجابا أو استئصال أو جلب خير سلبا ولا يضاد الوسائل النبيلة : كل ذلك يقره الإسلام فيما يقر وكثيراً ما رأينا أموراً واتجاهات فى بعض القبائل أو الأمم والمجتمعات التى دخلت فى حوزته ؛ لم ير الرسول عليه الصلاة والسلام أو الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ، لا عن هوى أو غرض ، ولا عن قصور أو ضيق بل عن إرشاد من الله الحكيم أو أثر من آثار رسوله الكريم لم يروا بأساً ولا حرجا فى العمل بها أو الابقاء عليها . ذلك لأن التجربة الناضجة . والهدف النبيل : ما دامت الوسيلة نظيفة لا يصح أن يحرم منها الانسان . ولأنها تمثل جزءاً من وجوده الحى الهادف وليس الانسان إلا تاريخا أو ليس التاريخ إلا جزءا من كيان الانسان والحياة .

والدين هو تنظيم لهذه القوى الهادرة . ودفع وحث للاستعدادات الراكدة وإيمان بالحياة والتاريخ .

وهو الحياة غير شهوة الفرج والبطن والحواس . وقوة الذهن ولمحة الفكر واستطلاعات الفعل . وإشراقات الروح وصفاء الحيوانية الذائبة ؟ هل الحياة غير هذه الثلاثة . الحواس وشهواتها . والعقول واكتشافاتها والروح واشراقاتها ليس الانسان غير ذلك إلا أنه لا يعيش بها منعزلا عن الآخرين : أو خارج أسوار الحياة بما فيها وكيف يكون كذلك وهو ليس إنسانا إلا لانه أنس بالآخرين فى زحمة الحياة